﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: 28 - 30]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ أورد النّظمُ الجليل قصّةَ إبراهيم عليه السلام وقد ذكرَ في طيّاتِها لوطًا مُخبرًا عنه بأنّه قد آمنَ بإبراهيم، شرعَ ببيانِ قصّة لوط عليه السلام، وما وقعَ له مع قومِه، فأتبعَ قصّةَ لوط بقصّةِ إبراهيم؛ لأنّه كان معاصِرًا له قريبًا منه، ومن المناسبة كذلك بيانُ أنّ الملائكة الّذينَ جاؤوا بالبشرى إبراهيمَ حينَ حلّوا به ضيوفًا هم أنفسُهم الَّذين أنزلوا العذابَ بقريةِ لوط عليه السلام[1]، ثمّ إنّ "الانتقالَ من رسالةِ إبراهيمَ إلى قومه إلى رسالةِ لوطٍ لمناسبة أنَّه شابَهَ إبراهيم في أنْ أنجاهُ اللّه من عذابِ الرّجْز"[2].

بـعـدَ قـصّـة إبـراهـيـمَ إيـرادُ خبر لوط عليه السلام

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَتَأْتُونَ﴾: (أتى) الإتيانُ: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيلَ للسَّيلِ المارّ على وجهه: أتيٌّ[3]، والإتيانُ: يقالُ للمجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ والتّدبيرِ، وفي الخيرِ والشرِّ، وقولُه: ﴿يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [النساء: 15]، أي: يَتلبَّسْنَ بها، واستعمالُ الإتيانِ هنا كاستعمالِ المجيءِ في قولِه: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]، ويُكنى بالإتيانِ عن الوطْءِ، ومنه: أتَى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 239.
(3) الراغب، المفردات: (أتي).

امرأته، وقولُه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ [الشعراء: 165]، ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [النمل: 55]، وهو من أحسنِ الكنايات[1].

2) ﴿ٱلْفَحِشَةَ﴾: (فحش) أصلُ الفُحْشِ: الزّيادَةُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ المُعْتادِ، والفُحْشُ والفاحِشَةُ: القُبْحُ والسّوءُ مِن القَوْلِ أو الفِعْلِ، يُقال: فحَشَ وفَحُشَ وأفْحَشَ عليّنا، فُحْشًا: إذا سَبَّنا وقالَ قَوْلًا فاحِشًا[2]، وهما: الذَّنْبُ، والزِّنا، والبَذاءُ، والوَقاحَةُ[3]، وما عظُمَ قُبحُه من الأفعال والأقوال[4]، والمرادُ بالفَحْشاءِ في الآية: الفِعْلَةُ البالغةُ في القُبح، وهي إتيانُ الرّجالِ باللّواطة[5].

3) ﴿سَبَقَكُم﴾: (سبق) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّقْديمِ، وتقدُّم الشيء من بين ما حوله في قوة وجِدّ[6]، أعيانًا كانت أوْ معاني[7]، والسَّبْق: القُدْمةُ في الجَرْي وفي كُلِّ شَيْءٍ[8]، واستُعمل بمعنى الفَوْت والإفلات، وبمعنى المُضيّ، فمن الإفلاتِ قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: 4]، ومن المُضيّ كلُّ ما جاء بلفظ (سَبَقَ) و(سَبَقَتْ) فهو بمعنى (مَضَى)، أي: كلمةٌ أوْ قولٌ أوْ حكمٌ مضى من اللّه ﷻ، أي: أُبْرِم؛ مثلُ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: 68][9]، والمراد به في الآية الكريمة أنّ لا أحدَ قبلَهم قدِمَ على هذه الفِعلة[10].

4) ﴿وَتَقْطَعُونَ﴾: (قطع) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى صَرْمٍ وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[11]، والقَطْعُ: فصلُ الشّيء مُدرَكًا بالبصر كالأجسام، أوْ مُدرَكًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة، فمِن ذلك قَطْعُ الأعضاءِ نحوُ قولِه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، وقَطْعُ الطَّريقِ يقالُ على

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أتي).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (فحش).
(4) الراغب، المفردات: (فحش).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(7) السّمين، عمدة الحفاظ: (سبق).
(8) ابن منظور، اللسان: (سبق).
(9) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(10) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

وجهين: أحدُهما: يرادُ به السّير، والثّاني: يرادُ به الغَصْب من المارّة والسّالكين للطّريق، نحو قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، وإنما سمّي ذلك قطعَ الطَّريق؛ لأنه يؤدّي إلى انْقِطاعِ الناس عن الطَّريق، فجعل ذلك قطعًا للطَّريق[1]، والمرادُ به في الآية الكريمة: أنّهم يتعرّضونَ لأبناء السّبيلِ بالفاحشة حتّى انقطعَ النّاس عن الطّريق[2].

5) ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: (سبل) أصْلٌ يَدُلُّ على امْتِدادِ شَيءٍ، فالْمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[3]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والسّابِلَةُ هم الَّذين يَسْلُكون السُّبل، وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الَّذي دَعا إليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: طريقُ النّاس الذي اعتادوا السّلوكَ فيه، وفيه سهولةٌ[5].

6) ﴿نَادِيكُمُ﴾: (ندا - ندي) النّداءُ في الأصل: رفعُ الصَّوت بطلبِ مَن يُنادي، وله حروفٌ مخصوصةٌ مذكورةٌ في كتب العربية، وقد يقال: النِّداء، للصَّوت المجرَّد[6]، وناداهُ مُناداةً ونداء، أي: صاح به، وتنادَوا، أي: نادى بعضُهم بعضًا، وتَنادَوْا، أي: تجالسوا في النّادي[7]، وعُبِّرَ عن المجالسةِ بالنِّداء حتَّى قيل للمجلِس: النّادي، والْمُنْتَدَى، والنَّديُّ، وقيل ذلك للجليس، قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ [العلق: 17]، ومنه سُمّيتْ دارُ النَّدْوَة بمكَّةَ، وهو المكانُ الذي كانوا يجتمعونَ فيه[8]، والمرادُ به في الآية الكريمة: المجلسُ الذي يجتمعُ فيه النّاس، وهو اسمُ جنس[9].

7) ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾: (نكر) أصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَمْ يَعترِفْ به لِسانُهُ[10]، والمُنْكَرُ: كلُّ فِعْلٍ تحكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبْحِهِ، أوْ تتوقَّفُ في استقباحِهِ واستحسانِه العقولُ، فتحكمُ بقُبْحِه

(1) الراغب، المفردات: (قطع).
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 465.
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سبل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 465.
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ندي).
(7) الجوهري، الصحاح: (ندا).
(8) الراغب، المفردات: (ندا).
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 315.
(10) وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).

الشّريعة[1]، والإنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أنْكَرْتُ حَقَّهُ أيْ جَحَدْتُهُ ونَفَيْتُهُ، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النَّاسُ وجَحَدوهُ فهوَ مُنْكَرٌ[2]، والمرادُ به في الآية الكريمة: المجامعةُ والسّبابُ والفُحشُ في المِزاح[3].

8) ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: (نصر) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِهِ، ونَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِمْ[4]، والنَّصر: إعانة الْمَظْلوم[5]، ونَصَرَهُ منه: نَجّاهُ وخَلَّصَهُ، وهو ناصِرٌ ونُصَرٌ[6]، قال تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 68]، ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250][7]، والمرادُ به في الآية الكريمة: النّصرُ على قومه بإنزالِ العقاب على المكذّبين ليُرِيَهم صدقَ ما أبلغَهم من الرّسالة[8].

9) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: (فسد) أصْلُ الفَساد: الخُروجُ عن الاعْتِدالِ[9]، يُقال: فسَدَ الكَلامُ، أيْ: خَرَجَ عن حَدِّهِ، ويُقالُ: فسَدَ الشَّيء فسادًا، وأفسدَه غيرُه، وضِدُّه: الصَّلاحُ[10]، والفسادُ عامٌّ في الكُفر والضَّلال وكلِّ ما هو ضارٌّ، والفَسادُ في الأرضِ هَيجُ الحروب والفِتَن؛ لأنَّ في ذلك فسادَ ما في الأرض، وانتفاءُ الاستقامة عن أحوال النّاس والزَّرعِ والمنافعِ الدّينية والدُّنيويَّة[11]، والمرادُ به في الآية الكريمة: السَّعيُ بإفسادِ النّاسِ بحَمْلِهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شرعَ النّظم الجليل ببيان قصّة لوط ﷺ مع قومه قائلًا: واذكرْ أيّها العاقل - لتعتبرَ وتتّعظ بعدَ قصّةِ نوح وإبراهيم ﷺ - ما حصلَ مع لوطٍ ﷺ حينَ قال لقومه على سبيل

(1) الراغب، المفردات: (نكر).
(2) الخليل، العين: (نكر).
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(5) ابن منظور، اللسان: (نصر).
(6) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (نصر).
(7) الراغب، المفردات: (نصر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.
(9) الزبيدي، تاج العروس: (فسد).
(10) ابن منظور، اللسان: (فسد).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فسد).
(12) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 674.

الزّجرِ والتّوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعلٍ قبيحٍ: إنّكم لتفعلونَ الفِعلةَ البالغةَ القبحِ والفُحش، وأنتم أوّلُ مَنِ ابتدعَها، ولم يَسبقْكم بها أحدٌ، وهي إتيانُ الذّكور دونَ الإناث، فأنتم تأتونَ الرّجال شهوةً من دون النّساء، وتقطعونَ الطّريق على المارّة، بأنْ تنتهبوا أموالَهم، وتكرهوهم إكراهًا على ارتكابِ الفاحشةِ معهم، وأنتم ترتكبونَ المنكَراتِ في مجالسِكم ونواديكُم التي تتلاقونَ فيها، ثمّ أخبرَ النّظمُ الجليل أنّ قومَه لم يُجيبوه بشيءٍ إلّا أنْ قالوا له على سبيلِ الاستخفافِ بوعْظِه وزَجْرِه: ائتِنا يا لوطُ بعذاب اللّه الذي تتوعّدُنا به، إنْ كنت صادقًا في دعواك أنّك رسول، وفي دعواك أنّ عذابًا ينزلُ علينا، بسببِ أفعالنا هذه التي ألِفْناها وأحببْناها، فلمّا أدّى لوط ما عليه من الوعظ والإرشاد، ورأى قومه لم يَستجيبوا له لجأ ﷺ إلى ربّه، يلتمسُ منه النّصرةَ والعونَ، فقال: رَبِّ انصُرني بأنْ تُنزلَ عذابك على هؤلاء القوم المُفسدين، الذين مرَدوا على ارتكابِ فواحشَ، لم يسبقْهم بها من أحدٍ من العالمين، واجتهدوا بإفسادِ غيرهم ونشرِ فِسْقِهم[1].

من عظيمِ القَصَص ما وقع للوطٍ معَ قومِه المُفسدين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾:

عطفَ النّظم الجليل قصّةَ لوط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ على قصّة نوح ﷺ[2]، والغرضُ من إيرادِ القصّة هنا تحقيقُ العبرةِ والعظةِ بمّا حدثَ مع قومه؛ إذ كذّبوه واستهزَؤوا به، وفي توالي القصص وتتابُعِها دروسٌ للمعتبرين وبلاغاتٌ للناظرين.

وعظُ السّامعين بقصةٍ أُخرى من قصص السّابقين

دلالةُ التصريح بالاسم العلَم:

في التصريح بالاسم العلَم (لوطٍ) في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ

ذكرُ أعلامِ الانبياءِ تشريفٌ لهم وتنويهٌ بهم

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 31 - 33.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 232.

لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مع حذف المتعلَّق (أرسلنا) إيجازًا، المرتبط بقوله تعالى أولًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [العنكبوت: 14]، وقوله ثانيًا: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: 16] تشريفٌ له، وإعلاءٌ لمكانته، إذ جعلَ النظمُ الجليلُ البدايةَ بذكر الشخصيَّة الأساسيّة في القصة؛ ليكون منهاجًا يستنيرُ به الدّعاة، ونبراسًا يقتدي به السّالكون.

معنى الظرفيَّة في: ﴿إِذْ قَالَ﴾:

تحديدُ زمانِ وقوعِ القصّة بالماضي

عبّر النّظم الجليل بالظّرف ﴿إِذْ﴾ المتعلق بـ(أرسلنا) المقدَّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، والمرادُ الاعتبارُ بقصّة لوط التي حدثَتْ حينَ أرسله الله تعالى إلى قومه، ويشيرُ الظّرفُ الدّالُّ على الزّمن الماضي إلى سرعة امتثالِ لوط إلى تكليفِه بالرّسالة[1]، وفي ذلك إشارةٌ أيضًا إلى وقتِ قوله لقومه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وهو أوّلُ زمنِ دعوتِه، والغايةُ من ذكر زمن الحدث والقصَّة الاعتبارُ بتجاربِ الأُمم السّابقة، والانتفاعُ بما آلَ إليه أمرُ المفسدين؛ ليرتدعَ مَن تُتلى عليه تلك الآياتُ البيّنات من مشركي مكّة وغيرهم ممَّن جاء بعدَهم.

نكتة ورودِ فعلِ القول ماضيا:

الإصرارُ على الدّعوة ورسوخُ الخطاب

آثر النّظم الكريم التَّعبير بفعل القول بصيغة الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ إشارةً إلى إصراره على الدّعوة، فعبّر بالصّيغة الدالّة على التحقّق والوقوع، والفعلِ المتضمّنِ معنى التّصريح، والإعلان، والجهرِ بالنُّصح والمؤاخذة؛ فلم يكن هيّابًا عن مواجهتِهم، ولا كاتمًا لما أمره الله تعالى بتبليغِه لهم.

مفهومُ اللّام في: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

الغرضُ من الدّعوةِ والبيان إنقاذُ بني الإنسان

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهو هنا دالٌّ على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.

التّعليل والغرض، أي: قالَ لأجلِ قومه، فالمستفيدُ من قولِه ودعوتِه هم قومُه، لأنَّ الغرضَ من دعَوات الأنبياء والمرسلين إنقاذُ جميع المهتدينَ بالفوز برضا ربِّ العالمين، والكلامُ وإنْ كان معلَّلًا بقومِه، لكنه شاملٌ لجميع الخلق؛ إذ ما من نبيٍّ إلا ودعا إلى التوحيد وعبادة الله تعالى، واجتناب المحرَّمات والفواحش.

دلالةُ التَّعبير بلفظ القوم مضافًا:

يَـصـدرون إلى الفاحشةِ باقتدارٍ وإصرارٍ وتناصُر

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (القوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على قوّتهم وكونِهم يفعلونَ تلك الفاحشةَ مُجتمعينَ، فكأنّهم يقومونَ قومةً واحدةً لطلبِ تلك الفاحشة، فضلًا عن الضّمير العائدِ على لوط ﷺ؛ ليدلّ على أنّ دعوتَه كائنةٌ في قوم يعرفونَه ويعرفونَ صِدقه وخُلُقَه، فكان الأجدى بهم السّماعَ له والاتّعاظَ بدعوته، ويترجّحُ أنَّ المخاطبين بالقوم كانَوا جماعةَ الذّكور دونَ النّساء؛ لأنَّ ما خاطبَهم به فاحشةٌ تصدرُ عن جماعةِ الرّجال.

دلالةُ التوكيد في جملةِ المقول:

إبـطـالُ زَعْـمِ فاعل الفاحشةِ أن فعلَه ليس بمنكَر

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ الاسميّةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بـ(إنّ)، واللّام في ﴿لَتَأْتُونَ﴾؛ لتأكيدِ كونِ ما يأتونَه فاحشةً، وإنّما أكّد ذلك لأنّهم لم يكونوا يشعرونَ بشناعةِ عملِهم وقُبحِه[1]، ولأنّهم وصلوا إلى مرحلةٍ من الممارسات جعلَتْهم يُنزّلونَ منزلةَ المُنكِر لفحشِ ما يصنعون؛ فجاءَ التأكيد نافيًا لذلك الإنكار ودافعًا له.

توجيهُ القراءاتِ الواردة في: ﴿إِنَّكُمْ﴾:

الإنـكـارُ على شَناعةِ الفعل تقريرٌ لِقُبْحِه

اختلفَ القرّاء في قراءة ﴿إِنَّكُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: فقرأ أبو عمرو، وحمزةُ، والكسائيُّ، وعاصمٌ في رواية أبي بكر بالاستفهام ﴿أَءِنَّكُمْ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 240.

والباقون قرؤوها بلا استفهام[1]، والاستفهامُ يدلّ على التقريرِ والإلجاءِ إلى الاعتراف بفعلِهم الشَّنيع مع التوبيخِ لهم على ذلك الصَّنيع البشِع، والتعجُّب من حالهم وما وصلوا إليه، وأمّا القراءة بلا استفهام فلتقرير الخبر وتثبيتِه ذمًّا لهم وتوبيخًا[2]، وفي هاتين القراءتين يتبينُ أنَّ لوطًا ﷺ كان يدعوهم بطرق مختلفة وبأساليب متعدّدة، فتارةً يلجأ إلى الاستفهام متعجِّبًا ومقرِّرًا، وتارةً أخرى يلجأ إلى الإخبار مُستغربًا من فعلِهم المقيت، ممّا يدلُّ على تحيُّرِ لوطٍ مع قومه في مواجهةِ أفعالهم السيّئة، فهو يتعجّبُ ويوبّخُ ويقرّرُ ويخبرُ لعلَّهم ينتهون ويرتدعون.

مجيءُ فعل الإتيان مُضارعًا:

مـزاولـتُـهـم الفاحشةَ دائمٌ متجدّدٌ

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن إتيانهم الفاحشة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ للدّلالة على أنّهم يُداومونَ على ذلك، وإنّما عبّر بالإتيان دون الفعل (تجيؤون) للدّلالة على أنّهم كانوا يقصدونَ الفاحشة ويسعَونَ إليها بكلّ يُسرٍ وسهولةٍ، وكأنها أمرٌ مستساغٌ ولذيذ، مع أنّها في حقيقتها شناعةٌ وقباحةٌ عميقة.

دلالةُ التعريف في ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

عظُمَتْ الجناية فكأنْ لا فاحشةَ سواها

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بالألف واللّام الجنسيّة أوِ العهديّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ للدّلالة على أنّها الفاحشةُ الكاملة، فكأنْ لا فاحشةَ غيرها، ففعلتُهم هي الفاحشة، ولا فاحشةَ وراءَها[3] في القبح والسّوء، وبناءً على أنَّ اللام للعهد فإنَّ عهديّتها أغنتْ عن ذكرها بخصوصِها لانصرافِ الذهن إليها، فقد صارت معلومةً بهذا اللّقب، حتى إنَّ دعوة لوط اقتصرتْ

(1) أبو علي الفارسي، الحجّة: 4/ 139 - 140، وابن الجزري، النشر: 1/ 371، 2/ 343.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 401 - 402.
(3) الخطيب، السراج المنير: 3/ 135.

عليها ولم تذكر قضيّةَ التوحيد؛ لأنَّ التخلُّص من هذه الفاحشة هو الطّريقُ للدّخول في حال الموحّدين والمخلِصين.

علّةُ اطلاقِ لفظ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ على اللّواطة:

فـطـرةُ الـنّـفس السّليمة تأنفُ شهوةً لا تُفضي إلى الولد

إنّ الشّهوةَ عمومًا صفةُ قُبح، لولا أنّ هنالك مصلحةً ما كان اللّه ليخلقَها ويركبّها في الإنسان، وقد نظَّمَها عن طريقِ مؤسَّسة الزّواج بقواعدَ وأحكامٍ تجعلُ الإنسان يتحصّنُ بها ويتعفّفُ عن المحرَّمات؛ فإنْ مارسَها بالطريقةِ الصَّحيحة كانت نافعةً لخُلُقه وروحِه ونفسِه فليست بفاحشةٍ حينئذٍ، وإنْ نفّذها بطرقٍ غيرِ شرعيّة كانت سببًا لضررِه وأمراضِه وانحطاطِه النفسيِّ والروحيّ وكانت فاحشةً وخبثًا، ومصلحةُ الشّهوة الفرجيّة هي سببُ بقاءِ النوع الإنسانيّ، وأمّا اللّواطةُ التي لا تفضي إلى ذلك فمجرّد قضاء شهوةٍ لا تتولّد عنها مصلحةٌ ولا تفضي إلى نتيجة، بل فيها من المضارّ والضّرر ما تأنفُ النفس البشريّةُ السَّويّة عن مُمارستِه[1].

بلاغةُ فصلِ جملة: ﴿مَا سَبَقَكُم﴾:

نـفـورُ الـعـالـمينَ عن هذه الفِعلة مُقرّرٌ شناعتَها

فصلَ النّظمُ الجليل الجملةَ الفعليّةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا تقريريًّا؛ سيقتْ لتوضيح طبيعةِ الفاحشة، ولتقريرِ قبح الفعلة وفَحاشتِها[2]؛ فإنَّ إجماعَ جميع أفرادِ العالمينَ على التَّحاشي عنها، لكونِها ممّا يأباها العرفُ وتشمئزُّ منها الطِّباع وتنفرُ منه النّفوس[3]، تقريرٌ لشناعتِها وسوءِ عاقبتها، فضلًا عمّا ذكرناه من انتفاءِ المصلحة بها، من حيثُ عدمُ إفضائِها إلى الولد، وهذا الاستئنافُ يتضمّنُ إظهارَ عظيم جرأتهم بكونهم أوجدوا سنّةً سيّئةً للنّاس، ويجوزُ أنْ تكون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 49.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 455.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 37.

جملةُ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ حاليةً، كأنّه قال: أتأتونَ الفاحشة مبتدعين لها غيرَ مسبوقين بها[1]؟ وفي كون ابتداع مثلِ هذا الفعل القبيح حالَهم مزيدُ تشنيعٍ عليهم، وبيانٌ لعظيمِ جرأتِهم على المنكَر[2].

إيثارُ التَّعبير بـ(سبقَ):

سنّةُ الفعلِ المشين أدعى للتّقريعِ والتّوبيخ

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفعلِ (السّبق) ماضيًا في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ للدّلالة على أنّهم أوّلُ مَن جاء بهذه الفاحشة، والمرادُ من ذلك تشديدُ الإنكار عليهم، والتوبيخ لهم بأنّهم سَنّوا بذلك فِعلًا سيّئًا كانَ لا يخطر على بالِ أحدٍ[3]، وفي السَّبق للفاحشةِ والوصولِ إليها قبلَ كلِّ أحدٍ تهكُّمٌ بما فازوا به من عملٍ مُشين، وفعلٍ مُخالفٍ للذّوق المستقيم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ متقدّمًا:

سبقُ النّاس بالخير وهم سبَقوا بالفاحشة

عبّر النّظم الجليل بالجارّ والمجرور في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾؛ لبيان ما وقعَ السّبقُ به، فليس المراد نفيَ السّبق على العموم، بل انتفاءُ السّبق بفعلِ هذه الفاحشة بخصوصها؛ فهم مسبوقونَ بالشّرك وغيرِه من الذّنوب، لكنَّ هذا الذنبَ لم يُسبقوا إليه، بل اختصّوا بعملِه وتقدَّموا مَن جاء بعدَهم بفعله، والباءُ تفيدُ التعدية الدالّةَ على أنَّ السّبق كان بالذّنب الشّنيع والخطيئةِ المُخجِلة، وقدّم النّظم الجليل الجارّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ على الفاعل ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ فلم يقل: (ما سبقكم أحدٌ من العالمين بها)؛ اهتمامًا بالمسبوق به أكثر من السّابق، لا سيّما وأنّ الفاعلَ عامّ، فالمراد الذّمّ على هذه الفاحشة والسّبق بها؛ بوصفها بِدْعًا من الأفعال يشمئزّ منه الطّبع السّويّ، وتنفرُ منه الفطرة البشرية.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.

دلالةُ التَّعبير بالحرف الزائد ﴿مِنْ﴾:

سلبُ العموم أدلُّ على الأوليَّة

أدخلَ النّظم الجليلُ حرفَ الجرّ ﴿مِنْ﴾ على الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ والأصل: (ما سبقَكم أحدٌ)؛ وإنّما جيء بـ﴿مِنْ﴾ الزّائدة للدّلالةِ على استغراق النّفي، تأكيدًا لكونهم أوّلَ مَن جاء بهذه الفاحشة، ولم يُسبقوا بها على وجه الإطلاق.

سرّ إيثار لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ نكرةً:

لا أحدَ على وجه العموم والشّمول تقدّمهم بفعل الفاحشة

لفظُ ﴿أَحَدٍ﴾ اسمٌ بمعنى (واحد)، ومعناه: منفردٌ، وهو صفةٌ مشبّهةٌ مثل (حسن)، ويفيد تمكُّنَ الوصف في موصوفه بأنّه ذاتيٌّ له، وأمّا (واحد) فاسمُ فاعل لا يفيد التمكُّن والاستقرار، هذا هو أصلُ إطلاقه وتفرّعت عنه إطلاقاتٌ صارت حقائقَ للّفظ ﴿أَحَدٍ﴾، أشهرها أنّه يُستعمل اسمًا بمعنى إنسان أوْ موجود، وهو من الأسماء النّكرات العامّة الملازمةِ للوقوع في حيّز النفي، ويدل على المفرد والمثنى والجمع، وعلى المذكر والمؤنث[1]، ومن هنا آثرَ النّظم الكريم التّعبيرَ بالنّكرة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ للدّلالةِ على شمول كلّ أحدٍ من النّاس السّابقين، فليس هناك مَن فعل هذه الفاحشةَ قبلَهم، أوْ أقدمَ عليها؛ اشمئزازًا منها في طباعِهم لإفراط قُبْحِها[2].

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾ الثّانية:

توالي العمومات مقرّرٌ السّبقَ للفاحشة

كرّر النّظم الجليل حرفَ الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ومعنى الأولى أنّها مزيدةٌ جيءَ بها لتوكيدِ النّفي وإفادةِ معنى الاستغراق، ومعنى الثّانية للبيان، أي: لم يسبقكم بها أحدٌ من إنسانٍ أوْ موجود هو من جنسِ العالمين، وقد أضفى البيانُ عمومًا آخرَ على العموم السّابق، وذلك لاقترانه بلفظ

(1) التحرير والتنوير: 30/ 613 - 614، 620.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فدلّ على انتفاء فعل هذه الفاحشة عن جميع العوالم فضلًا عن النّاس[1].

دلالةُ مجيء لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ معرّفًا:

كلّ العوالم تنفرُ من الفاحشةِ التي يأتونها

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للإشارة إلى أنّ كل العوالم العاقلة وغيرها تنفرُ من هذه الفعلة المُشينة، مع الإغراق في تقبيح هذه الفاحشةِ المَقيتة.

بلاغةُ الفصل في: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾:

كمالُ الاتّصال مُغنٍ عن العطف

فصلَ النّظمُ الجليل الجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾؛ لأنّها في موضعِ كمالِ الاتّصال؛ فهي بدلٌ أوْ بيانٌ عن الجملة السّابقة، وبينَ الجملتينِ اتّحادٌ تامٌّ في الاتّصال؛ إذ إتيانُ الرّجال بدلُ اشتمالٍ أوْ عطفُ بيانٍ من إتيانِ الفاحشة[2].

بلاغةُ الاستفهام في الآية:

مَن يتجرّأ على هذا الفعل القبيحِ يَستحِقُّ التأنيبَ قبلَ التعذيب

استعملَ النّظمُ الجليل الاستفهامَ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ تأنيبًا لهم وتقريعًا لهم، والاستفهامُ جيءَ به للتوبيخ والتقريع[3] على الفاحشةِ الشّنعاء التي لم يأتِها غيرهم، والغرضُ من التوبيخ والتجريح استعظامُ ذلك الفعل، والإشارةُ إلى أنه عملٌ مستقذرٌ طبعًا، فينبغي الانتهاءُ عنه قبل التعرّض إلى أصلِ دعوةِ الأنبياء والرُّسُل، وهو توحيدُ الله تعالى بالعبادة؛ إذ مَن يفعل مثلَ هذا الأمر الشّنيع يكون بمعزلٍ عن الفهم والإدراك لأسِّ الدَّعوة وجوهرِها.

بلاغةُ التوكيد في الآية:

تأكيدُ وقوعِ الفعل الشّنيع محلُّ استغرابٍ

الاستفهامُ داخلٌ ههنا على أمرٍ مؤكّدٍ وقوعُه، فالاستفهام ليس للشّكِّ في إتيانهم الرّجال من دونِ النّساء، وقطعِهم السَّبيل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 240.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353، والهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 401.

بل لغرابة الوقوع المؤكّد لهذه الأفعال[1]، وفي هذا التوكيد الداخلِ على الجملةِ مع أنَّهم لا يُنكرونه أصلًا تنزيلٌ لغير المنكِر منزلةَ المنكِر؛ إذ من شأنِ الإنسان الطبيعيِّ إنْ قام بشيء من تلك الأمور استجابةً لضعفٍ بشريٍّ أنْ يُنكِرَ صدورَ هذه الأفعال عنه إنْ نُسبت إليه، فنزَّلهم منزلةَ مَن ينكر ذلك؛ لأنه اللائق والأحرى بهم، مع أنَّهم ليسوا منكرين أصلًا صدورَ تلك الفواحشِ منهم، فلمّا كان فعلُهم الشاذّ هذا لا يتحقّق صدورُه عن أحد، ولا يرتضيه ذو لبٍّ، ولا يُصدِّقُه سامعٌ تناهى إلى مسامعِه خبره؛ لكمالِ بُعدِه من العقولِ أكّده تأكيدًا قويًا بـ(إنّ)، واللام، وتكرار فعل الإتيان، وهو تأكيدٌ للإنكار العامّ السّابقِ، وفيه مزيدُ توبيخ وتقريع.

دلالةُ تكرار فعل الإتيان هنا:

تكرارُ الفعل المشين تقبيحٌ له، وتوبيخٌ لفاعله

كرّر النّظم الكريم فعلَ الإتيان في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بعد أنْ قال: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ للإطناب بذكرِ المنكَر الّذي أتَوا به، تقريعًا لهم وتشنيعًا عليهم، وإظهارًا لقبيحِ فعلِهم، وتوبيخَهم عليه، كما أنّ إيراده بصيغة المضارع دليلُ استمرارهم عليه، حتى ألِفوه وصار من طباعِهم المعتادة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مخالفَ الفطرة قد يتحوّلُ إلى عادةٍ وطبيعة، وأنَّ الفطرة ليست الاعتياد على الشيء، بل هي العملُ الذي يتناسبُ مع العقلِ السَّليم والذَّوق المستقيم.

تخصيصُ لفظ الرجال بالذِّكْر:

اللّائق بالرجال ومَن يتصف بهذا الوصف أنْ يسمو عمّا لا يليق

ذكرَ النّظمُ الجليل لفظ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ دون الغِلمان والمردان ونحوِهما مبالغةً في توبيخهم، وذمّهم[2]، وتشنيعًا لجريمتهم وفضحًا لهم، وترهيبًا للنّاس من

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5465.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 245.

ارتكاب هذا الجُرم، كما أنَّ في هذا العنوان استخفافًا برجولتِهم التي تتقاطعُ مع أصلِ خلقتها الطبيعيَّة، وأنَّ اللّائق بالرجال ومَن يتصف بهذا الوصف أنْ يسموَ عن هذا الأمرِ، الَّذي لا يتوافقُ معَ طبيعتِه وخِلقتِه.

دلالةُ العطف في: ﴿وَتَقْطَعُونَ﴾:

كثُرت منكراتهم حتّى تعدّدت في ذمّهم

عطف النّظمُ الجليل قطعَ السّبيل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ على جريمة إتيانهم الرّجال؛ للدّلالة على عظيمِ المناكِرِ التي كانوا يأتونها، والغرضُ من ذلك بيانُ استحقاقِهم الذّمّ بسبب صفاتٍ مختلفةٍ بالغةِ الأذى[1]، وبيانُ أنَّ الفاحشة قد تعمَّقت فيهم حتى إنّهم لم يكتفوا برجالِ قومهم، بل خرجوا إلى الطّريق متربّصينَ بالمارّة، يريدونَ ذلك الفعل حتى أصبحوا قطّاع طرقٍ من أجله، فينضمُّ هذا العملُ إلى بدل الاشتمال أوِ البيان لتحديدِ تلك الفاحشة التي لم يَسبِقْهم إليها أحدٌ من العالمين، ولتحديدِ أبعادها على النفس البشريّة، التي إنِ اعتادت على ذلك الفعل فإنَّها تخرجُ عن النّسَقِ الطبيعيِّ، وتصبحُ أسيرَ ملذّاتها بشكلٍ خارجٍ عن العقولِ والأذواق.

بلاغةُ التَّعبير بقطع السّبيل:

قـطـعُ سبيل الـنّـاس بالفاحشة إغراقٌ في القبح

آثرَ النّظم الكريم التَّعبيرَ بـ(قطع السّبيل) دون (قطع الطّريق) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ لأنّ قطعَ السّبيل أشنعُ وأكثرُ أذى؛ فالسّبيلُ هو الطّريق المعتادُ الذي يَسلكُه النّاس لسهولته ويُسْره[2]، والسبيلُ كلمةٌ مطلقةٌ تعني: الطّريق الماديَّ، أي: الشّارعُ الّذي نمشي فيه أوِ: الطريقَ المعنويَّ، أي: الطّريقةُ التي نسيرُ عليها، ومنها قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: 108][3]، والمرادُ بقطع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 465.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11143.

السبيل قطعُ سبيل المارّة بديارهم، فإنّهم كانوا يفعلونَ هذا الفعل بالمُجتازين من ديارهم من الغرباء، ويَغصبونهم على الفاحشة، وبقبحِ الأحدوثة تنقطعُ سبُلُ الناس في التجارات والمعاملات، وتتوقف الحياة بالانقطاع عن الطريق[1].

بلاغةُ الكناية في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

المنفعةُ من النّكاح بقاءُ النوع وتحويل جهته قبحٌ لا يستره مصلحة

من المعلوم أنّ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ المعتاد مع النساء بنكاحهنّ هو المشتملُ على المصلحة التي هي بقاءُ النوع وقضاءُ الشّهوة بالصّورة الطبيعيَّة عن طريق إقامةِ علاقةٍ شرعيَّة، وأما تحويلُ وِجهته الى الرِّجال أو بالزّنا فقبيحٌ لم يَستُرْ قبحَهُ مصلحةٌ؛ لأن الزّنا وإنْ جاء بالولد فإنّه لا يوفّر له البقاءَ الكريم الشّريف في المجتمع، والحقُّ سبحانه جعلَ لبقاءِ النوع طريقًا واحدًا، لا مصلحةَ باتّخاذ غيره، لا مع رجلٍ ولا امرأة، وقطعُ السّبيل كنايةٌ عن الإعراض عن النّساء وتركِ نكاحِهنّ، وقطعِ الولد، بتعطيلِ الفرجِ ووطءِ الرّجال[2]، وهو من السَّبيل المعنويّ، وبهذا يتحقّقُ قبحُ هذه الفِعلة والفاحشة على مستوى الحياةِ الاقتصاديَّة إنْ كان المرادُ بالسَّبيل الحسيَّ، وقبحِها على مستوى التناسُل والبقاء إنْ كانَ المرادُ بالسّبيل المعنويَّ، فأيّةُ مصلحةٍ تتحقَّق من الشذوذِ وأفعالِه الغريبة؟.

بيانُ الإيجاز في قطع السّبيل:

ذكرُ المُسبَّبِ دالٌّ على السّبب

وجهُ التَّعبير بـ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أنّ ذكر المُسبَّب دالٌّ عَلَى السّبب المحذوف للاختصار، والمُسبَّبُ قطعُ السَّبيل، والسّببُ الوقوفُ في طريق السّابلة لتصيّد الرّجال؛ طلبًا في إيقاعِ الفاحشةِ بهم[3]، وإنما عبّر بالمسبَّب وحذفَ السّبب؛ لأنَّ النتيجة التي تتولّد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 50، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353 - 354.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 50، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11142 - 11143.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 46.

من الوقوفِ في الطَّريق أثمرَتْ قطعَه وإيقافَه، وذلك متناسبٌ مع بيان اعتيادِهم على تلك الفاحشة، وآثارِها في حياتهم، ونتائجِ الشّذوذِ وثمراته، ومناسبٌ لاستقذارِ ذلك العمل واستفظاعِه بذكر آثارِه وما يترتّبُ عليه.

دلالة ورودُ الفعلِ ﴿وَتَقۡطَعُونَ﴾ مضارعًا:

دوامُ الفاحشة قطعُ الطّريق على الاستمرار

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارعِ عن قطعِهم السّبيلَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ للدّلالة على تجدّد هذا القطع واستمراره، فكانَ دوامُهم في إتيان الفاحشة دفعَ النّاس إلى ترك المرور بهم، وتركِ طرقِهم فقُطِعت، أوْ أنّهم قطعوا النّسل بإيثارِهم الرّجالَ على النّساء[1].

إيثارُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ معرَّفًا:

لا سبيلَ للحياة مع شيوعِ الشّذوذِ وجرائمِه

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، والمراد بها الدّلالةُ على الجنس، أي: تقطعونَ جنس الطّريق وحقيقته، والغرضُ من ذلك بيانُ أنَّ الشذوذ وما يستتبعُه من خطايا وانحرافاتٍ يؤدّي إلى قطع كلِّ سُبُل الحياة وأنظمتِها الطَّبيعيَّة، التي فطر اللّه تعالى النّاسَ عليها، وأنَّ تلك الأعمالَ المُخِلَّة بالطَّبع الإنسانيِّ السويِّ، تؤدي إلى تدميرٍ للحياة وسُبُلها وأنظمتِها ونواميسِها، وليس المرادُ أنّهم يقطعونَ طريقًا بعينِه.

دلالةُ العطف في: ﴿وَتَأۡتُونَ﴾:

تعديدُ قبائحِهم بالتفصيل بيانٌ لعلّة الذمّ

عطفَ النّظم الجليل إتيانَ المنكَرِ في مجتمعِهم على إتيان الفاحشة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾، وفائدةُ العطف جمعُ المناكر التي كانوا يفعلونَها وتعدادها، بيانًا لكونهم يَستحقّون الذّمّ من وجوه[2]، كما أنّ الإخبارَ عن كونهم

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 379.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.

يأتونَ المنكر في النّادي يدلّ على شدّةِ انحرافهم، بحيث إنّهم يجاهرونَ بتلك المناكر، وهكذا يتطوّرُ الشّذوذ ويتداعى في المجتمع مثل كرة الثلج، إنْ لم يتمَّ إيقافُه والتصدّي له بمسؤوليّةٍ؛ فإنَّ فعلَ الفاحشة التي لم يسبقْها إليهم أحدٌ من العالمين أمرٌ مبهمٌ احتاجَ إلى إبدالٍ وبيانٍ منه، فبيّنه أنَّهم يأتون الرجالَ من دون النّساء، وحصلَ نوعُ امتيازٍ لتلك الفاحشة، وبقي الإبهامُ في أمكنة عملِها وممارستِها، وهل تتمُّ سرًّا أوْ جهارًا؛ فذكر أنَّهم خرجوا إلى الطَّريق يترصّدون الرجالَ لأجلها، وهذا نوعٌ من المجاهرة لكنْ قد يتمُّ في جنحِ الليل أوْ على سبيل الانفراد والتخفّي، فذكر أنّهم يفعلونَه في وضَح النهار عندما يتجمَّعون في نواديهم، إذ بدلًا من التباحُث بالأمور العامة والمهمّة؛ ينزلونَ إلى الحضيض، ويمارسون تلك الفعلةَ الشنيعة على مرأىً من الجميع، وهذه نتائجُ الشذوذ وأخطارُه، إذ يتحوّل النادي من كونه مركزًا لمناقشةِ مشاكلِ المجتمع بالحكمة، إلى مرتعٍ للرّذيلة، وتضيعُ الحقوق ويسودُ الظّلم وتنتشرُ الفوضى.

بلاغة التّعبير بقوله: ﴿نَادِيكُمُ﴾:

القبولُ بالشّذوذ تدميرٌ للمجتمع ومؤسَّساتِه

النّادي هو المجلسُ الذي يجتمعون فيه، ولا يسمَّى ناديًا إلّا إذا كان فيه أهلُه، وعبّر النّظم الجليل بلفظ (النّادي) لبيان ذمّهم في إتيانهم المنكرَ فيه، وذلك في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، وإتيانُ المنكر مذمومٌ عامّة، ولكنّه خصّهم بذكره؛ لأنّهم كانوا يأتونه في مكان اجتماعِهم بمرأىً من الجماعة؛ فهم يُجاهرونَ به تعبيرًا عن جرأتهم، ولا يبالونَ بمخالفتهم النّاسَ وسُنّة الخلق، وليس المرادُ من الإضافة هنا بيانَ أنّ لديهم ناديًا واحدًا، بل هو اسم جنس؛ لأنّ أنديتهم في مدائنهم كثيرةٌ، ولا يُسمّى ناديًا إلا ما دامَ فيه أهله، فإذا قاموا عنه، لم يُطلق عليه نادٍ إلا مجازًا؛ فدلّ

على أنّهم يأتون أنواعَ المنكَرات في كلّ مجتمعٍ لهم، أي: تأتونَ المنكرَ في اجتماعِكم حيثُ اجتمعْتُم[1].

سرُّ التَّعبير عن الفاحشة بـ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾:

جمعوا بينَ كبائر الإثم وصغائرِه

آثر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ دون (الفاحشة) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾؛ لأنّ المنكَرَ يُطلَقُ على ما يُخالفُ أوامرَ الشّرع، وما ينفُرُ عنه الطّبعُ السّليم[2]، فهو أعمّ في الدّلالة من الفواحش، إذ الفاحشةُ مختصّةٌ بما عظُم منها، ودلّ على أنّهم يأتونَ كثيرًا من المُنكَرات، ولا يقتصرونَ على تلك الفاحشةِ الشّنيعة، كما أنَّ تسميةَ الفاحشة بالمنكر بيانٌ لكون الشذوذ ينكرُه الطّبعُ السويّ، ولا يرتضيهِ العقلاء، فهم وإنْ ألِفوه وتعارفوا عليه لكنَّه منكرٌ مرفوض، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ تعارفَ الناس على بعض القبائح وانتشارَها بينهم لا يعني أنَّها ليست من المنكَرات، التي ترفضها الشرائع والقوانينُ السَّماويّة، والفطرة الإنسانية السّليمة، والذوق البشريّ، والمنظومة الأخلاقيّة المستقرّة في الوعي الجَمْعيّ.

دلالةُ تعريف لفظ ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾:

تعارفوا على كلّ المنكَرات المنهيّ عنها

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ وهي دالّةٌ على الجنس، أي: تأتون جنس المنكر المتحقّق في صورٍ وأفرادٍ عديدةٍ ومتكثّرة، فيشملُ كلّ المنكرات المنهيّ عنها شرعًا، وكلّ ما تنكرُه المروءاتُ والعقول[3]، فكانوا في غاية البُعْد عن الحياء وحُسن الأدبِ والسّمت الطبيعيّ.

بلاغةُ العطف في: ﴿فَمَا كَانَ﴾:

عطفَ النّظم الجليل الجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ بالفاء الدّالّة على

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 315، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 50.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353 - 354.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

التّفريع؛ لأنّ جوابَ قومِ لوط مُتفرّعٌ عن بيانِ لوطٍ ﷺ لأفعالِهم السّيِّئة، وما تستلزمُه من آثارٍ في الحياة، وعن دعوته لهم في كلِّ حالٍ ووضع يكونون عليه، وتشيرُ الجملة المعطوفة بالفاء بما فيها من دلالة على السّببيّة إلى أنّ جوابَهم كان عنادًا مُسبَّبًا عن نُصْحِه وعِظَتِه لهم وفَضْحِه لطريقتهم[1]، وهذا أمرٌ متوقّعٌ من قومٍ وقعوا أسرى شهَواتهم الحيوانيّة، ولم يُحكِّموا العقلَ والذوق في تصرُّفاتهم وأعمالِهم.

عـنـادُ الـقـوم وجدالُهم متفرّعٌ عن تعدادِ سوءِ أفعالهم

دلالةُ نفي ﴿كَانَ﴾ بصيغةِ الماضي:

نفى النّظمُ الجليل فعلَ الكون بصيغة الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ دونَ أنْ يقول: (ما أجابَ قومُه إلّا أنْ قالوا)؛ للدّلالة على أنّ الجوابَ مُنتفٍ عنهم انتفاءً وجوديًّا، فليس لديهم جوابٌ من الأصل إلا التحدّي وليس ذلك جوابًا.

انـتـفـى تـحـقُّـقُ الـجـوابِ عنهم أصالةً

دلالةُ التّعبير بلفظ (الجواب):

عبّر النّظمُ الجليل عن ردِّ قوم لوط على نُصْحه ووَعْظه وبيانِه الآثارَ السّلبيّة على تلك الفاحشةِ الشّنيعة بلفظ (الجواب) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ولمّا كان التحدّي المقرونُ بالاستهزاءِ والسّخرية ليسَ جوابًا مسوِّغًا لأفعالِهم السيّئة، فإنّه أطلقَ عليه لفظَ (الجواب) استعارةً تصريحيّةً للدّلالة على أنّهم أفلسوا من الجوابِ الحقّ الذي يُظهِرُ صوابَ عملهم، فعمَدوا إلى السّخرية بطلبِ العذاب تحدّيًا واستخفافًا ودلالةً على الاستمراريّة واللّزوم لتلك الأعمال المنكَرة وعدمِ الإقلاع عنها، والمراد أنّ القومَ أُسقِطَ في أيديهم فلم يُرجِعوا جوابًا لا فتقارهم إليه؛ إذ العملُ الشّنيعُ لا يمكنُ تسويغُه.

الإفـلاسُ عن الـجـواب سرُّ الـلُّـجـوء إلى التحدّي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

دلالةُ تكرار لفظ (القوم):

جميعُ القوم متّفقونَ على التحدّي المقرونِ بالتهكُّم والتكذيب

كرّر النّظمُ الجليل لفظ (القوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ دون أنْ يقول: (فما كان الجوابُ)؛ وذلك للنّصّ على أنّ القوم جميعًا قد اتّفقوا على هذا القول، وفي التّصريح به أيضًا، وإضافته إلى ضمير لوطٍ ﷺ: تعريضٌ بهم من حيث إنّهم أنكروا ما جاء به مستهزئينَ، مع أنّهم قومُه وأولى الناس بتصديقه، والاستجابةِ لدعوته التي فيها هدايتُهم.

بلاغةُ القصر في الآية:

الإعراضُ عن القول المنطقيّ دليلُ الاعترافِ بشناعةِ الفعل

حصر النّظمُ الجليل جوابَهم بطلب العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لتأكيد مضمون الخطاب، فنفى عنهم كلّ مقولةٍ تليق بالمقام، وأثبت لهم قولًا واحدًا وهو الاستهزاءُ والتهكّمُ والتكذيب بطلبِ إيقاعِ العذاب إنْ كان صادقًا فيما يتوعّدُهم به من العذاب، وحصرَ قولهم بالاستهزاء للدّلالة على إفلاسِهم عن إقامة الحُجَج والبراهين المنطقية، وعن العِلَل الدّافعة لسلوكِهم المنحرِف، فلا جواب لهم غيرُ التّحدّي والتكذيب المزوجَيْنِ بالاستخفاف والتهكُّم والهُزء، والقصرُ إضافيٌّ؛ إذ إنّهم أجابوا لوطًا بأقوالٍ أخرى منكرةٍ ومعيبةٍ، لكنّ النظم المهذّب جعلَ ردّهم منحصرًا بهذا؛ للدّلالة على افتقارِهم للجواب الحقّ، ولكون بعضِ تلك الردود لا يليقُ نقلُها؛ إذ لا يصدرُ من المتفحّشينَ بالفعل إلا الفحشُ في القول.

معنى الحرف ﴿أَن﴾:

طلبُ الإتيان بالعذاب هو قول قومُ لوط

عبّر النّظمُ الجليل بالمصدر المُؤَوَّل من ﴿أَن﴾ المصدريّة وفعلِ القول في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لما في المصدر المؤوّل من دلالةٍ على حدوثِ الفعل ووقوعه بشكل متحقق وثابت، إذ دلّ الفعلُ الماضي بصيغتِه على صدور قولهم ذلك، أي: كان قولُهم ذلك هو جوابَهم له.

دلالةُ التعبير بـ(القول) ماضيًا:

التصريح بالقول إمعان في المواجهة والتكذيب

إنّ المصدر المؤول صيغةٌ استيعابيّة للدلالةِ الاسميّة والدلالة الفعليّة، فينتظِم فيه معنيان: حركةُ المعنى في الزّمن، وهو الفعليّة، ومعنى المصدر في دلالته على أصل الحدثِ وحقيقته، فيجمعُ بين الحدوث والحدَث، واستعمالُه في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ يدلّ على نسبة القول إليهم، وتحقّق وقوعه منهم صدْقًا: تصريحًا، لا تلميحًا، وجهرًا لا إضمارًا، ذلك أنّ طلبَ العذاب ممّا يُستبعدُ وقوعُه من المرء على نفسه؛ إذ لا يطلبُ أحدٌ إيلامَ نفسه، فالتّعبيرُ بهذه الصيغة يؤكّد أنّهم طلبوه قولًا مُعلنين ذلك؛ إمعانًا منهم في الاستهزاء، والشّكّ في صدقِ وقوعِه بعدَ أنْ توعَّدَهم بالعذاب إنْ لم يُقلِعوا عن الكُفر والفُحش، وما صدَّهم عن الإيمان باللّه ووحدانيّته إلا اتباعُهم لشهواتهم وخضوعُهم لانحرافِهم، وآثر النّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ للدّلالة على أنّ تلك المقولةَ قد رسَختْ لديهم، ومضتْ دون أنْ تنتقضَ بمقولة أخرى، فأصرّوا على مقولتهم تلك دونَ تغييرٍ أوْ مُراجعة.

بلاغة الأمر في: ﴿ٱئۡتِنَا﴾:

أطلقوا الأمرَ وغايتُهم التحدّي والتعجيز

عبّر النّظم الجليل بفعلِ الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تحدّيًا وتكذيبًا مقرونًا بالاستهزاء والسّخرية، فهو أمرٌ للتّعجيز[1]، أي: ليس باستطاعتك إنزالُ العذاب، ودلَّ هذا الطلبُ على أنَّ لوطًا عليه السلام كان يُنذرهم بنزول العذاب عليهم إنْ لم يُقلعوا عن كفرِهم وفُحشِهم وتكذيبهم باللّه ورسوله لوطٍ، وبدلًا من الانصياع وتركِ الموبقات المخجلةِ لدى الطِّباع الإنسانيَّة المستقيمةِ لجؤوا إلى أسلوبِ التحدّي الناشئِ عن التكذيبِ والمقترنِ بالاستخفاف، ليطلبوا نزولَ العذاب وتحقيقَ ما كان يُخوِّفُهم به من الآيات.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.

مفهومُ (الباء) في: ﴿بِعَذَابِ﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (الباء) الدّالّ على التّعديةِ والإلصاقِ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: اجلبِ العذابَ إلينا بأنْ تأتيَ به إلينا وتُلصقَه بنا كما تُعيبُ علينا إتيانَ الرّجالِ والالتصاقَ بهم، جهلًا منهم بأنّه يدّعي إنزالَ العذابِ من نفسه، وأنَّ الله تعالى لم يُبلّغْه بذلك التخويفِ والتهديد، ولن يُعجّلَ لهم العذابَ ويُلصقَه بهم، حتى يقلبَ عليهم الأرضَ ويجعلَ عاليَها سافلَها كما قلبوا السُّنَّة في إتيانِ الرّجالِ دونَ النّساء.

دلالة إضافة ﴿بِعَذَابِ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾:

الجهالةُ والجراءةُ للكافرين جالبةٌ العذابَ من ربِّ العالمين

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ العذاب إلى اسم الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ للدّلالة على قوّة جرأتهم[1]، وفي ذلك دلالة على فحشِ استهزائِهم وعنَتِهم، واختاروا الاسم الجليل دونَ وصف (الربّ)؛ لأنهم كانوا يؤمنون بالله ربًّا لا إلهًا معبودًا، وكان لوط ﷺ في تخويفه يُنذرُهم بنزول العذابِ منَ المستحقِّ للعبادة وهو الله تعالى، فجاء التحدّي منصبًّا على محطِّ التكذيب.

دلالةُ التعبير بإن الشرطيَّة:

التكذيبُ والشكُّ في الصِّدق سرُّ التحدّي

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بـ﴿إن﴾ الشّرطيّة دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وذلك للدّلالة على أنّهم لا يثقونَ بصدقه حتّى على سبيل الاحتمال؛ لأنّ ﴿إن﴾ تفيد الاحتمال والنّدرةَ والشكّ في الشّرط، والذي يترجّحُ أنّهم كانوا مكذِّبين لنبوّته ومنكرينَ لصدقِه في تخويفهم وتهديدهم، إلا أنهم نزَّلوا أنفسهم في مقام التحدّي منزلةَ الشاكّين تنزُّلًا منهم معه، لكيلا يقالَ عنهم: إنَّهم جازمونَ بكذبِه وإنذارِه؛ فما الدّاعي إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

مطالبته بإنزالِ العذاب؟ وكيف يطالبونَه بتحقيق وعيدٍ وقد ثبت كذبُهُ لديهم؟.

سرُّ ورودِ (كان) فعلًا للشّرط:

وجودُ التمكّن في الصّدق يقتضي الإتيانَ بالعذاب

أتى النّظم الجليل بـ(كان) فعلًا للشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ للدّلالةِ على أنّ التّمكّن في صفة الصّدق[1]، وهذا التّمكّن يقتضي الإيتاءَ بما وعدهم، فدلّ أسلوب الشّرط على نفيهم عنه صفةَ الرُّسوخ في الصّدق، أي: إنْ كنتَ راسخًا في الصِّدق ومتمكِّنًا فيه ومتَّصفًا به على جهة الرُّسوخ فأتِنا بالعذاب، ويستلزمُ ذلك أنَّك لستَ مَكينًا في الصّدق.

معنى ﴿مِنَ﴾ في الخبر:

الانضواءُ في زُمرة الصّادقين يقتضي تحقيق الوعيد

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهي دالّة على التّبعيض، أي: إنْ كنتَ واحدًا من زُمرة المشهورين بالصّدق، وتحتملُ أنْ تكونَ للابتداء، أي: إنْ وُجِد وتحقَّقَ كونُك مَبدأً للصّادقين، وكأنَّ الصّادقين مكانٌ وأنتَ تبدأ به وتتقدّم عليه لكونك أشهرَهم، والمرادُ نفيُ كونِه مِمّن شُهروا بالصّدق ورائدَهم فيه، أي: لست منْ أولئك الصّادقين، ولو كنت منهم فائتنا بالعذاب، وبذلك أفاد الحرفُ تمامَ التكذيب والإنكار معَ الاستخفاف والتهكُّم.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

ثبوتُ الصّفة في بعضٍ حتى صاروا فيها جنسًا ونوعًا

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (الصّادقين) بصيغة اسم الفاعل جمعًا في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ للدّلالة على تمكّن هذه الصّفة واستقرارها وثبوتها فلا تزولُ، أي: الّذين شُهروا بالصّدق وتمكّنوا من الوصف تمكُّنًا لا يقبلُ الانفكاك، فالصّيغةُ دالّةٌ على معنى الصّفة المشبَّهة وإنْ كانت على وزن اسمِ الفاعل مثل (طاهر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

وضامر)، وأفاد الجمعُ الجنسَ والزّمرة التي شُهِرت بهذا الوصف، ودلّت (أل) الموصولة في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ على الَّذين عُرفوا بالصِّدق عند الوعيد، فيفيدُ العمومَ والشمولَ والجنس، وفي الصِّلة إشارةٌ إلى علَّة طلب الإتيان بالعذاب، وهو انتسابُك للصّادقين وادّعاؤك أنّك واحدٌ منهم؛ إذ تعليقُ الحكم بالمشتقِّ يدلُّ على أنَّه علّةٌ له.

بلاغةُ الفصل في: ﴿قَالَ رَبِّ﴾:

ردّ الجواب بالّلجوء إلى النّاصِر المُعين

فصلَ النّظم الجليل الجملةَ الفعلية في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنّه قيل: وبمَ أجابَهم؟ قيل: قال لوطٌ عليه السلام مُعرِضًا عنهم ومُقبِلًا على الله تعالى[1]، ولا تحتاجُ الجملةُ البيانيّةُ حينئذٍ إلى تصديرها بحرف العطف؛ لأنّها وردتْ في سياقِ المحاورة التي تربطُ الكلامَ بلا احتياجٍ إلى عاطفٍ ورابط.

دلالةُ حذفِ حرف النداء:

الشعورُ بالإحباط داعٍ إلى سُرعة الإقبال

حذفَ النّظمُ الجليل حرفَ النّداء (يا) في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ دون أنْ يقول: (يا ربّ)؛ لأنّ الله تعالى لا يحتاجُ في دعائه أوْ مخاطبته ﷻ إلى حرف التّنبيه، وهو القريب إلى أوليائه، وهذا من رفيع أدبِ الأنبياء، ويمكنُ أنْ يقال: إنَّ شعورَ لوط عليه السلام بالإحباطِ الشّديد من قومه، وإصرارِهم على التكذيب مع تحدّيه، مُستهزئين بإنزال العذاب الذي كان يتوعّدُهم به، جعلَه يُقبلُ على الله تعالى بالكليَّة، ويُسرعُ في طلبِ النُّصرة والعَوْن، حتى إنَّه حذفَ حرفَ النداء لكمالِ حاجته إلى ذلك العَوْنِ العظيم.

إيثارُ التّعبير بلفظ الرّبوبيّة:

من تمام النّعم الامتنان بالنّصر على المفسدين

آثرَ النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ تضمينًا للدّعاء بسابقِ الإحسان، واعترافًا بنعمائه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

السّالفة، وأنّ الله تعالى يجازي عبدَه الشّكور بمزيدٍ من العطاء، كما أنَّ اختيار (الربّ) في مقام الخطابِ يوحي بكمال السَّيطرة والعظمة والجبروت، ويسنحُ للمتكلِّم الداعي أنْ يُضيفه لنفسِه؛ إذ أصل ﴿رَبِّ﴾: يا ربي، وهذه الإضافةُ إلى المتكلِّم الداعي توحي بكمالِ الحاجة والافتقار إلى النُّصرة والعَوْن، فيكون أدعى للإجابةِ والقبول.

اختيارُ النَّصر مادّةً وصيغةً:

لا يُطلبُ نصرٌ إلا من القويّ المتين

آثر النّظم الكريم التَّعبير بـ(النّصر) مادّةً في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ طلبًا للعَوْن، وإفراغًا لذاته من القوّة والحول واللّجوء إلى القويّ المتين، والفعلُ بصيغتِه الأمريَّة هنا دالٌّ على الاستنصار، أي: الدّعاء بطلب النّصر وتحقيقِه له، والأمر لم يُستعمَل بمعناه الحقيقيِّ بل أُريد به الدُّعاء والتوسُّل، وذلك النصرُ يتحقّق بإنزال العذاب على القوم المنحرفين عن السّبيل القويم[1].

سرُّ التعبير بحرف الاستعلاء:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ الدّالّ وضعًا على الاستعلاء في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والمرادُ به الاستعلاءُ المجازيُّ، وذلك بالتّمكّن منهم وغلبتِهم وإنزالِ العذاب فيهم، الَّذي أمرتَني بتبليغِه لهم إنْ كذَّبوا، فيكونُ نصرُك لي تصديقًا لكلامِك لي وكلامي لهُم.

سرّ التعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾:

حصرُ الفساد بالقوم مبالغةٌ في الاتصاف

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ للدّلالة على أنّ لديهم قوّةً وقدرةً على إيقاعِ الشّرّ، ما لا طاقةَ للوطٍ به[2]، فاضطرّه إلى طلبِ النّصر من الله

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 315، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

تعالى، ودلّ التّعريفُ باللّام العهديَّة على أنَّ المراد بالقوم المعروفونَ بتلك الخصالِ السّابقة من عملِ الفواحش واقترافِ المنكَرات.

بلاغةُ الوصف المتعدّي:

من شرورِ الفاسدينَ سعيُهم في الإفساد

وصف النّظم الجليل القومَ بصفة (الإفساد) الدالَّة على التعدّي صَرْفيًّا في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للدّلالةِ على أنّهم لم يكتفوا بفعل الفاحشة والفساد الذاتيّ، بل إنّهم دأبوا على نشر الرّذيلة وإفسادِ غيرهم بتحبيبِ ذلك الفعلِ الشنيع وتزيينِه في قلوب الآخَرين؛ إذ (الفاسدُ) اسمُ فاعل من (فسَدَ) اللّازم، وأمّا (المُفسدُ) فهو مشتقٌّ من (أفسدَ) المتعدّي بالهمزة، فهو مَن يقصدُ إفسادَ غيره، والمرادُ من وصفِهم بتلك الصّفة المتعدّية للغير بيانُ انتشار شرورهم في الأرض، المقتضي استعجالَ نزولِ العذاب وتحقيقِ النّصر[1].

دلالةُ التعبير بالموصول وصلته:

علّةُ طلبِ النّصر والعَوْن سعيُهم بالإفساد في الأرض

أوردَ النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ المكوّن من الموصول الاسميِّ وصِلَتِه الوصفيَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: القوم الذين يُفسدون في الأرض ويَسعون إلى تخريبها وهدمِها وتدميرِها بشذوذِهم وخُثالاتهم، ويرادُ به العمومُ والشمول، أي: انصُرني على جميع الّذين يتحقّق فيه هذا الوصفُ من قومِه المعهودينَ، ويكونُ ذكرُ الصّلة الوصفيّة بعدَ طلب النُّصرة دالًّا على التعليلِ له، أي: انصُرني على القوم المعهودينَ لأنهم مُفسِدونَ وهادِمونَ للحياةِ السَّليمة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفاحشة والسّيّئة:

الفاحشةُ أخصّ من السّيّئة، فهي ما عظُم من السّيّئات

أصلُ الفُحْشِ: الزّيادَةُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ[2]، والفاحِشَةُ: ما عظُم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 38، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11146.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).

قبحُه من الأفعال والأقوال[1]، أمّا السَّيِّئَةُ فهي الفعلةُ القبيحة، وهي ضدّ الحسنة[2]، فالسّيّئة لفظٌ عامٌّ في المعاصي شاملٌ لأنواعِها المختلفةِ كَمًّا نوعًا، والفاحشةُ خاصّ بما عظُم منها وكَثُر كَمًّا ونوعًا، فعبّر عن فعلتهم بالفاحشة؛ لأنّها بالغة القبح، حتّى إنّها لتنفرُ منها النّفوسُ الكريمة، وهي إتيانُ الرّجال.

المنكَر والمكروه:

المنكر ما حُكِم بقُبحه عقلًا، والمكروه ما حُكم بقُبحِه عقلًا وشرعًا

الكُرْهُ يدلّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ[3]، والكُره ما ينالُ الشيء في ذاته وهو ما يُعاف من حيثُ النّفس والطّبع، وما يعافُ من حيث الشرعُ والعقل[4]، فمعنى كراهة الشيء: عدمُ قبول النّفس إياه[5]، وأمّا المنكَر فهو كلُّ فِعْلٍ تحكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبْحِه، أوْ تتوقَّفُ في استقباحِه واستحسانه العقولُ، فتحكُمُ بقبحِه الشّريعة[6]، لأنّه يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ[7]، فالمنكر، ما يَحكمُ العقل بقبحه؛ لأنّه ضدّ المعرفة، وأمّا المكروه فهو ما لا تقبلُهُ النّفس ولا الطّبعُ السّليم؛ لأنّه ضدّ الرّضا والمحبّة، والمرادُ به في الآية الكريمة اللّواطُ والسّبابُ والفحشُ في المزاح[8]، وذلك ممّا تحكمُ العقولُ بقُبحِه.

(1) الراغب، المفردات: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (سوأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كره).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كره).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كره).
(6) الراغب، المفردات: (نكر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»